الحقيقة المحمدية في الأدب الصوفي:

سأحاول في هذه الدراسة – إن شاء الله تعالى – تناول جانب من هذه الموضوعات والقضايا الأدبية الصوفية أخص بالذكر نظرية الحقيقة المحمدية وذلك بتلمس الموضوع في النقط التالية:

أولا: مفهوم الحقيقة المحمدية، أصولها والقول فيها:

ثانيا: تجلي الحقيقة المحمدية في الأدب الصوفي

أولا / مفهوم الحقيقة المحمدية، أصولها والقول فيها:

تمثل الحقيقة المحمدية من الموضوعات التي اختص بها التصوف في فلسفته و الإسلام في رسالته، و تعالى صوت الحق في ترنيمة الرسالة العظمى يرسل أشعته من الأفق ، فاتخذها الشعراء مرتكزا لترجمة ذواتهم و بث همومهم و نشر رسالتهم للأمة الإسلامية جمعاء فكانت حقيقته كلمة الله الخالدة في اصطفاء منابع السر الأعظم من دوحة الإنسانة و استخلاص ثمرتها.

ونظرية الحقيقة المحمدية قديمة قدم التصوف نفسه وتناولها أوائل المتصوفة ومتأخروهم وعبروا عنها في كتاباتهم وأدبياتهم ولم يقصروا جهدا في ذلك بل كانت من بين الأسس التي انبنت عليها نظرياتهم الفلسفية. ولهذا فقد تغنوا بها في أشعارهم وذكروها في مناجاتهم

يعتبر سهل التستري أول من قال بالحقيقة المحمدية[1] ، حيث وضع أول تصور متكامل لتقدم خلق نور محمد في الفكر الصوفي " و أرسى دعائمها الحلاج تلميذ التستري ، بل كان له الأثر في تحديث هذا التصور[2].

وهي " التعين الأول، الذي ظهرت منه النبوة والرسالة والولاية، ونشأت عند جميع التعينات ولأجل ذلك كان نبينا محمد (ص) سيد الوجود، وأصل كل موجود وهو أول الأولين وخاتم النبيين، المختص بالإسم الأعظم الذاتي الذي لا يكون إلا له دون جميع الأنبياء، من حيث أنه المرجع الأصلي، لجميع التعينات[3]، كما يرى كاشاني : "هي الذات مع التعين الأول، فله الأسماء الحسنى كلها وهو الإسم الأعظم" [4].

وقد لعبت نظرية الحقيقة المحمدية والروح المحمدية دورا كبيرا في التصوف، لاسيما في القرن السادس والسابع الهجري، وقد تكلم عنها الكثيرون، منهم: ابن عربي (638 ه) شهاب الدين السهروردي (563ه) وابن السبعين وابن الفارض و .. الخ.

فمحيي الدين ابن عربي يربطها بفلسفة وحدة الوجود حيث يقول:" إن الحقيقة هي ما هو عليه الوجود بما فيه من الخلاف والتماثل والتقابل "[5] وهي العماد الذي قامت عليه قبة الوجود، إذ يقول":

فالله لما خلق الخلق جعلهم أصنافا و جعل في صنف خيارا واختار من الخيار خواص وهم المؤمنون ، واختار من المؤمنون خواص وهم الأولياء ، و اختار من هؤلاء الخواص خلاصة وهم الأنبياء واختار من الخلاصة نقاوة ، وهم أنبياء الشرائع المقصور عليهم ، و اختار من النقاوة شرذمة قليلين وهم صفاء النقاوة المروقة وهم الرسل أجمعهم ، و اصطفى واحدا من خلقه هو منهم و ليس منهم ، هو المهيمن على جميع الخلائق جعله الله عمادا أقام عليه قبة الوجود و جعله الله أعلى المظاهر و أسناها صح له المقا تعيينا وتعريفا فعمله قبل وجود طينة البشر و هو محمد[6].

فالحقيقة المحمدية عند ابن عربي لها علاقة بوحدة الوجود ، و لا غرو في ذلك ، فإذا كان يرى الوجود كله حق فلا بد أن تكون الحقيقة تعني الوصول إلى هذه الوحدة وكل ما في " الوجود كله حقيقة "[7]، و من هذا المنطلق أقام الصوفية نظرية الحقيقة المحمدية ليبنوا عليها مبدأهم في وحدة الوجود لجمعها بين الضدين[8]

ويبدو أن هذا التعريف يجعل النبي أصل كل شيء وأصل الموجودات لا فقط نورا أزليا ظهر مع خلق آدم أو قبله ولنوره سجدت الملائكة لما تشعشع في جبين آدم وإنما تجاوز ذلك ليقول بأن محمد أصل الكون.

كما نجد عبد الكريم الجيلي وهو الذي استوت عنده نظرية الحقيقة المحمدية وربطها بالإنسان الكامل فهو يرى أن سيدنا محمد عبد الله ورسوله المعظم ونبيه المكرم وسابقه الأقدم وصراطه الأقوم مجلى مرآة الذات ومنتهى الأسماء والصفات، مهبط أنوار الجبروت ومنزل أسرار الملكوت ومجمع حقائق اللاهوت ومنبع دقائق الناسوت[9] وهي عند عبد الرزاق القاشاني أصل جميع الأسماء الإلهية المضاف إليها الربوبية و معنى كون هذه الحقيقة المحمدية أي أن الصورة العنصرية المحمدية صورة لمعنى و لحقيقة ذلك المعنى و تلك الحقيقة هي حقيقة الحقائق , يقول أيضا ":هي عرش الروح الأعظم الذي استوعب القرآن العظيم حين تجلى الله عليه بالذات لأن الله لا يتجلى بالذات إلا عليه لأنه النموذج الأول الأعظم ، و لأنه خليفة الله في الأرض ولأن الخليفة يحاكي المتخلف في الصفات بل هو مظهر الحق فيكون الإسناد إليه[10].

تعرفها سعاد الحكيم[11] بقولها: " الحد الجامع الفاصل بين الحق و العالم "[12] و هذه الحقيقة عندها مرادفة للإنسان الكامل التي هي رسول الله:

الحقيقة المحمدية = الإنسان الكامل = الرسول

و تقول أيضا ": وهي كما يراها شيخنا الأكبر في وحدته واقع الوجود الذي يراه والوصول إلى الحقيقة هو الشهود لتلك الوحدة الوجودية، إذن الحقيقة هي الوصول إلى وحدة الوجود"[13] ، و يعرفها

أيمن حمدي في قاموسه " المصطلحات الصوفية " بقوله: " هي أول موجود أوجده الله تعالى من حضرة الغيب ، و ليس عند الله من خلقه موجود قبلها "[14].

مصادر القول بالحقيقة المحمدية:

ذهب بعض الدارسين إلى رد هذه النظرية إلى أصول إسلامية، فالصوفية استمدوا نظرياتهم في الحقيقة المحمدية من القرآن أولا، و من السنة النبوية الشريفة و بعض الأحاديث القدسية من ذلك نذكر:

_ قول الله عز وجل: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) سورة الأحزاب الأية 46.

فالغزالي يرى أن السراج المنير هو سراج النبي محمد و نوره ، فهو الأحرى بأن يسمى بالسراج المنير لفيضان أنواره إلى غيره ، و هذه الخاصية توجد للروح القدسي النبوي إذ تفيض بواسطته أنوار المعارف على الخلائق[15] فالعالم بأسره مشحون بالأنوار الفائضة بعضها من بعض فيضان النور من سراج الروح النبوي ، و الأنوار النبوية مقتبسة من أنوار السراج النبوي ، ثم ترتقي في جملتها إلى نور الأنوار و معدنها و منبعها الأول[16]

_ ومنه قوله تعالى أيضا: (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين)

حيث يستشهد ابن عربي بهذه الآية ويرى بأن محمد صلى الله عليه وسلم نور من عند الله، فحقيقته بهذا المفهوم هي مصباح ظلمة الكون[17]

_ قوله تعالى (مثل نوره كمشكاة)

حيث يشرحها عبد الكريم الجيلي بقوله بأن مشكاة النور المحمدي استمد الأنبياء السابقين عليه فكان أول الخلق الذي أخذ الأنبياء من حقيقته الأزلية ، و كان أخر المرسلين الذي أسند به باب الرسالات السماوية ، ليأتي بعد الكمل من الأولياء الذين هم ورثة النور المحمدي"[18]

ويستند الصوفية في تأييد فكر أسبقية الوجود المحمدي على وجود الكائنات على بعض **الأحاديث** التي لم تسلم من الشك و التجريح منها:

فعن محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال سمعت قتاد يحدث عن أنس بن مالك قال ، قال رسول الله ": لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده و والده و الناس أجمعين[19]

و حديث ما رواه جابر بن عبد الله أنه قال": قلت يا رسول الله بأبي أنت و أمي أخبرني عن أول شيء خلق الله قبل الأشياء ، قال : يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره فجعل

ذلك النور يدور بالقوة ، حيث شاء الله ، و لم يكن في ذلك لوح و لا قلم و لا جنة و لا نار و لا أرض و لا قمر و لا جني و لا إنسي..."[20] فهذا الحديث يرى أن حقيقته هي أول شيء خلق الله[21]

استشهد الصوفية على هذا الحديث في بناء نظرية النور المحمدي متخذ مصطلات عدة بدءا بالحلاج، فقد اصطلح عليها " النور المحمدي " فهو يعد أول من أدخل فكر النور المحمدي إلى التصوف، من ذلك ما نجده في " الطواسين " فهو يرى أن محمد أول مخلوق عن طريق التجلي الإلهي للعالم بالقوة قبل كل شيء فنوره مبدأ الظهور وهذا ما يجعله النور الذي يصدر عن الله مباشر[22].

ثانيا/ تجلي الحقيقة المحمدية في الأدب الصوفي:

النماذج المعبرة عن الحقيقة المحمدية في الأدب الصوفي كثيرة ومتنوعة وتختلف على حسب التجربة الصوفية لكل صوفي، من ذلك قول الحلاج معبرا عن حقيقته التي تجلت في الأنبياء منذ القدم، إذ يقول:

عـقد النبـو مصبـاح مـن النـور ... مع لمق الـوحي في مشكـاة تأمـور
بـالله يـنفخ نفـخ الـروح فـي جلـدي ... لخاطـري نفـخ إسرافيـل في الصـور
إذا تجـلى لطـوري أن يكلمـني ... رأيـت في غيـبتي موسى على الطـور[23]

و من الصوفية الذين عبروا عن هذا المحبة النبوية ، ما نجده في حائية السهروردي:

هـي خمـر الحـب القـديم ومنتهـى ... غـرض الـنديم فنعـم ذاك الـراح
هـي أسكـرت فـي الخلـد آدم ... أولا و عليـه منهـا خلعـة ووشـاح
و كـذاك نـوح في السـفينة أسكـرت ... و لهـا بذلـك رنـة و نيـاح[24]

وزاد حكيم الإشراق السهروردي المقتول من توضيحها من خلال نظرية العرفان الإشراقي[25] و هذه النظرية تجعل الله نور الأنوار فياضا بالأنوار القاهرة و هي النفوس و العقول و بالجواهر الغاسقة الناشئة عن الأنوار ، و هي الأجسام[26]

و تطورت هذه النظرية على أيدي من جاء بعده من الصوفية في العصور التالية حاملة أسماء مختلفة خاصة في القرن السادس و السابع هجري ، لكن جوهر النظرية ظل كما وضعه الحلاج في القرن الثالث الهجري[27]، فقد عبر عنها ابن عربي في مؤلفاته من خلال نظريته في وحد الوجود و " نظرية الخلق " ، حيث يقول معبرا عنها بالنور:

أنـا آدم الأسـماء لا آدم النـشء ... فلي في السما و الأرض ما كان من خبء
و لكنـه مـن حيـث الأسـماء كونـه ... و مالـي فيـه إن تحققـت مـن كـفء

أنـــا خاتـــم الأمـــر الأعـــم وجـــوده لـــذاك تحملـــت الـــذي فيـــه عـــب ء
لقـــد مـــدني ظـــلا و إن كنـــت نـــوره فإن لم أكن في الظل إني لفي الفيء[28]

فحقيقته تفيض بنورها على الكون فتزيده بهاءا و نورا ، يقول على لسان الجمع :

إنـــ ي رأيـــ ت لـــه نـــورا يضـــيء بـــه أهـــل السمـــاء إذا عيـــن توفيـــه
مـــن الضـــياء الـــذي فيـــها حقيقـــته و حقـــه و ســـوى هـــذا يعفيـــه[29]

كما عبر عنها ابن الفارض في تائيته المشهور ، يقول على لسان القطبية

وروحي لـلأرواح روح ، و كـل مـا تـرى حسـنا في الكـون مـن فـيض طينتي[30]

و من صوفية القرن السابع ابن سبعين فهو يرى أن حقيقته هي النور الذي جعله الله نور ا للعالم العلوي و السفلي ، و طبيعة الأرواح من نوره ، بل هي الوجود على الحقيقة[31] إذ لا يزال قائما ينتقل من قطب إلى قطب آخر.

و استند ابن عربي لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، و عن أبي هرير أنه قيل للنبي : متى وجبت لك النبو ؟ قال :بين خلق ادم ونفخ الروح فيه" [32]لبناء فلسفته الوجودية ، حيث يقول": كان نبيا و آدم بين الماء و الطين و لهذا بدئ به الأمر و ختم...[33] فصح له المقام تعيينا وتعريفا فعمله قبل وجود طينة البشر[34]. يقول معبرا عنه في فائيته:

ألا يأبـى مـن كـان ملكـا و سيـدا و آدم بيـن المـاء و الطيـن واقـف
فـذاك الرسـول الأبطـحي محمـد لـه في العـلا مجـد تليـد و طـارف
أتـى بـزمان السعد في آخـر المـدى و كانـت لـه في كـل عـصر مواقـف
أتـى لانكسـار الدهـر يجـبر صـدعه فأثنـت علـيه ألسـن و عـوارف
إذا رام أمـرا لا يكـون خلافـه و ليس بذاك الأمر في الكون صارف[35]

فحقيقته وجدت في صور كل نبي و رسول وهي لا تزال تفيض بالأنوار على الكمل من الأولياء ، و هذا النور ينتقل عنده إلى الأولياء فيسقطون صفاتهم ليستبدلوها بالصفات المحمدية ولذلك يتحقق لهم الكمال[36]. و قوله في همزيته:

و يكـون هـذا السيـد العلم الـذي جردتـه مـن دور الـخلفـاء

و جعلـته الأصـــل الكريـــم و آدم مـــا بيـــن " طيـــنة خلقـــه و المـــاء

ونقلتـــه حتـــى استـــدار زمانـــه و عطفـــت آخـــره عـــلى الأبـــداء[37]

وذهب إلى هذا الرأي عبد الكريم الجيلي في حديثه عن الإنسان الكامل، فهو يرى أن الإنسان الكامل هو النبي لكنه يتقمص في شخصيات عديد حسب المكان و الزمان[38]، يقول معبرا عنها

لـي الملـك في الـدارين لـم أرى فـيهما ســـواي فـــأرجو فضـــله أو فأخشـــاه

و لا قبـــل مـــن قبلـــي فالحـــق شـــأنه و لا بعـــد بعـــدي فأسبـق معنـــاه

وهكذا فإن المتصوفة تغنوا بنظرية الحقيقة المحمدية في أشعارهم وتطرقوا لها في فلسفاتهم ولم يختلفوا حول أزلية النور المحمدي الذي خلق و" آدم بين الماء والطين" في نظرهم إلا أن كل واحد من هؤلاء المتصوفة يحاول أن يربطها بنظريته وطريقته في التصوف.

خاتمة:

من خلال ما سبق يبدو من تتبع شريط الحقيقة المحمدية في الدراسات الصوفية و عند المتصوفة أنفسهم أنها تأخذ تعاريف متعددة و ألوان كثيرة إلا أن القاسم المشترك بين كل هؤلاء هو اعتبار النبي محمد صلوات ربي عليه و سلامه أول مخلوق في الوجود ومنه انفلقت الأكوان و منه كذلك استقى باقي الأنبياء سر وجودهم فهو الإنسان الكامل و نور الوجود و سره.